قلعة بني حماد: عوامل التمدن وأسباب الخراب

•د/ عبدالقادر دحدوح

مقدمة:

اهتم المسلمون منذ مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ببناء المدن، باعتبار أن الحاجة الداعية إليها ضرورية في كل مكان وزمان، ومن ثم بدأت حركة التعمير، فاستقر المسلمون أولا بالمدينة المنورة، ثم توسعوا وانتشروا، وكان لزاما عليهم بناء مدن وقلاع وحصون، فشيد منها الكثير على مر التاريخ.

غير أن هذه الحركة العمرانية الواسعة والسريعة لم تتم بصورة عشوائية، وإنما وفق معايير وقواعد حددها رجال الفكر العمراني الإسلامي، ويعلل هؤلاء العلماء أسباب خراب واندثار بعض المدن الإسلامية إلى عدم استجابتها لهذه القواعد.

ومادامت قلعة بني حماد واحدة من هذه المدن التي عمرت ثم خربت فجأة، فما هي الأسباب التي كانت وراء خرابها ؟ الم تستجب هي الأخرى لقواعد الفكر العمراني الإسلامي؟ ما هي الظروف المصاحبة لنشأتها واختيار موقعها؟ وما هي عوامل تطور عمرانها؟

١- مدخل تاريخي:

يرجع استقرار الإنسان بمنطقة المعاضيد حيث تقع قلعة بني حماد إلى فترات ما قبل التاريخ، واستمر خلال الفترات القديمة، ولا زالت العديد من البقايا تشهد على ذلك، مثلما هو الحال في المخابئ الصخرية التي تقع إلى الشمال من القلعة على ضفاف وادي فرج، وعدة أماكن توجد بها بقايا لأدوات حجرية مثل قمة الغورين ودوار المعاضيد وفي المحيط الداخلي للقلعة، كما لا تزال بقايا أثرية قديمة منها موقع تيحمامين[١].

أما خلال الفترة الإسلامية فإن أقدم إشارة إلى تعمير الموقع ترجع إلى بداية الحكم الفاطمي وبالتحديد إلى ثورة أبو يزيد مخلد بن كيداد، حيث يذكر ابن حماد الصنهاجي بأن الخليفة الفاطمي المنصور حاصر أبا يزيد بقلعة كيانة، وهي تاقربوست المطلة على قلعة حماد[٢]، وقد جاء ذكر هذه الواقعة عند كل

• أستاذ محاضر بالمركز الجامعي لتيبازة الجزائر

[1] -(ACHILLER.R, «La Kalaa et Tihamamine», in: Recueil des Notice de la Société Archéologique du Département de Constantine, 1903, P235-239, 240-241.

[٢])- ابن حماد الصنهاجي (ابو عبد الله محمد)، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول احمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٤٢.

من البكري (ت٤٨٧هـ/١٠٩٥م) [٣]، وعبد الرحمن ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) [٤] وصاحب كتاب عيون الأخبار عماد الدين إدريس (ت٨٧٢هـ/١٤٨٨م) [٥]، وغيرها من المصادر التاريخية.

وقد تعددت التسميات التي عرفت بها هذه القلعة، حيث ذكر ابن حماد وإدريس عماد الدين اسم قلعة كيانة، كما أورد ابن حماد لها اسما آخر وهو قلعة المرى ويقول بخصوص هذا الاسم «سمتها البربر المرى وإنما هي المرآة، لمرآة كانت منصوبة عليها في الزمان الأول »[٦]، و عند ابن الأثير(ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) [٧] وابن خلدون[٨] تعرف باسم قلعة كتامة، في حين تعرف حسب كل من البكري [٩] وياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) [١٠] وصاحب كتاب الاستبصار [١١] بقلعة أبي طويل.

ويبدو أن القلعة كانت تعرف في الأول باسم قلعة كيانة ثم قلعة أبي طويل، وبقي هذا الاسم متداولا إلى أن جاء حماد واختط قلعته التي حملت اسمه، ومن خلال الأوصاف التي قدمها كل من ابن حماد و بالأخص صاحب كتاب عيون الأخبار يظهر أن قلعة كيانة أو قلعة أبي طويل كان موضعها في قمة جبل تاقربوست، حيث يستدل من الأحداث المرتبطة بحصار أبي يزيد في هذه القلعة أنها كانت تشغل قمة جبل تلتف حولها منحدرات متوعرة بها صخور، حيث يذكر صاحب كتاب عيون الأخبار: «قلعة كيانة وهي أحصن تلك الجبال وامنعها، ليس لها إلا مسلك واحد وطريق متوعر على ظهر جبل منيع لا يرام مسيرة يوم، ثم ينتهي

---

[٣]- البكري (ابو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له وفهرسه ادريان فان ليوفن و اندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، قرطاج، ١٩٩٢، ج٢، ص٧١٠.

[٤]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تقديم عبادة كحيلة، شركة الأمل للطباعة والنشر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ج٤، ص ٤٤.

[٥]- عماد الدين (ادريس)، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط١، ص٤١٥،٤١١، ٤٢٢، ٤٣٢-٤٣٨.

[٦]- ابن حماد الصنهاجي (ابو عبد الله محمد)، المصدر السابق، ص ٤٢، ٤٣.

[٧]- ابن الأثير (ابو الحسن علي)، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٩٧١، ج٧، ص٢٠٠.

[٨]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٤، ص ٤٤.

[٩]- البكري(ابو عبيد)، المصدر السابق، ج٢، ص٧١٠.

[١٠]- الحموي(ياقوت)، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٩٠، ج٤، ص٤٤٢.

[١١]- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨، ص١٦٧، ١٦٨.

إلى رمال، منها كانت تأتيهم الميرة»[١٢]، ثم يواصل وصفه لوقائع المعركة فيقول: « وقد صار المارقون (أتباع أبي يزيد) على أعلى التلال يلقون الصخور العظيمة من رؤوسها، فلا تمر برجل ولا دابة إلا طحنت ما تمر عليه وصيرته رميما، وغادرته هشيما، واستمر القتال إلى نصف النهار، وكل الناس وملوا وعطشوا، وأثخن الأولياء جراحا، وأخذتهم الحجارة، وكاعوا عن النزال، وأتعبهم شديد القتال، فزجرهم الإمام وأغضبه كلالهم وملالهم، وكر بنفسه على الأعداء، ومعه ثلاثة آلاف فارس و أكثر من عشرة آلاف راجل حتى توسط في الوعر الذي لا مسلك فيه للخيل والرجال»[١٣]، وبناء على هذا النص وغيره ومعاينتنا الميدانية للموقع والذي لاحظنا فيه منحدرات شديدة ليس من السهل اجتيازها من جميع الجهات فيما عدا الجهة الشمالية، ويتخلل هذه المنحدرات صخور عالية وكأنها أسوار، وعليه يتأكد لنا أن هذا الموضع هو الذي كانت تشغله قلعة كيانة (أنظر المخطط الملحق والصورة رقم ١)، وهو الموضع الذي لا زالت تظهر فيه بقايا بعض البنايات.

أما قلعة حماد فهي تقع أسفل الجبل من ناحية القبلة (الجهة الجنوبية الشرقية)، وهو نفس الشيء الذي ذكره ابن حماد « جبل كيانة وهو المطل على القلعة»[١٤]، وقد كان بناء هذه القلعة على حسب ابن خلدون في سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م من طرف حماد بن بلكين، واستمرت الأشغال بها إلى غاية سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م[١٥]، في حين يذكر ياقوت الحموي بأنها « قاعدة ملك بني حماد بن يوسف الملقب بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي البربري، وهو أول من أحدثها في حدود سنة ٣٧١هـ/٩٨٢م، وهي قرب أشير من أرض المغرب الأدنى، وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع»[١٦]، ومن خلال عرض هذا النص يظهر لنا شيء من التضارب، حيث يشير ياقوت الحموي إلى حماد هو من اختط القلعة[١٧]، ومن جهة أخرى

---

[١٢])- عماد الدين ادريس، المصدر السابق، ص ٤١٥، ٤١٦.

[١٣])- نفسه، ص ٤١٥، ٤١٦.

[١٤])- ابن حماد الصنهاجي (ابو عبد الله محمد)، المصدر السابق، ص ٢٥.

[١٥])- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧١.

[١٦])- الحموي (ياقوت)، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٢، ٤٤٣.

[١٧])- لقد فهم بعض الدارسين من النص المذكور أن بلكين بن زيري هو أول من اختط القلعة، في حين سياق الحديث يشير إلى أن حماد هو أول من استحدثها وقد أكد المؤلف هذه الحقيقة في آخر النص حين قال: إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع. أنظر: العربي (اسماعيل)، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠، ص١٢٢. بويحياوي (عز الدين)، تطور العمران الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط (من القرن الثاني إلى القرن الثامن للهجرة)، أطروحة دكتوراه دولة في =

يذكر بأن استحداثها كان في سنة ٣٧١هـ/٩٨٢م، ولما نرجع إلى المعطيات التاريخية فإن حماد لم يعرف عنه تولي الولاية قبل وفاة أبيه بلكين بن زيري في سنة ٣٧٣هـ/٩٨٤م، حيث يذكر ابن خلدون أن المنصور « عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة وكان يتداولها من أخيه يطوفت وعمه أبي البهار»[١٨]، وفي موضع آخر يذكر ابن خلدون أن المنصور «عقد لأخيه حماد على أشير»[١٩]، ويبدو أن حماد حافظ على ولايته هذه إلى غاية وفاة المنصور وتولي ابنه باديس شؤون الحكم[٢٠]، حيث يذكر ابن عذارى أن باديس عين حماد على أشير في شهر صفر سنة ٣٨٧هـ/فيفري-مارس ٩٩٧م[٢١]، ومن جهة أخرى فإن جل الأحداث التاريخية التي تسبق سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م لا تشير إلى بناء القلعة ولا من تولى حكمها، ولو كان بناؤها في السنة التي ذكرها ياقوت الحموي لكانت كتب التاريخ تناقلت أخبارها، وعليه فإن التاريخ الذي ذكره ياقوت الحموي غير دقيق، في حين يبقى قول ابن خلدون هو الأقرب إلى الصواب.

ومنذ ذلك التاريخ عمرت قلعة بني حماد فشيدت «أسوارها واستكثر فيها من المساجد و الفنادق، فاستبحرت في العمارة، واتسعت في التمدن»[٢٢]، واتخذها حماد وخلفاؤه من بعده عاصمة لملكهم إلى غاية بناء الناصر مدينة بجاية وانتقاله إليها في سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م، ومن هذا التاريخ بدأ يدب الخراب في القلعة شيئا فشيئا جراء ما لقيته من ضربات عديدة، أهمها هجوم بنو هلال في سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م، وثانيها هجوم الموحدين في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م، وثالثها هجوم بنو غانية في سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣[٢٣]، ومن ثم تخرب عمرانها وتحولت

=الآثار الإسلامية، قسم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، ٢٠٠١-٢٠٠٢، ص ٢٣٠.

[١٨])- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٥٧.

[١٩])- نفسه، ص١٥٧.

[٢٠])- يذكر اسماعيل العربي بأن حماد ظل على هامش الحياة السياسية إلى أن عينه الأمير باديس بن المنصور على ولاية أشير في شهر صفر سنة ٣٨٧هـ/فيفري-مارس ٩٩٧م، والحقيقة أنه سبق وان كان واليا على اشير في عه المنصور مثلما رأينا. أنظر: العربي (اسماعيل)، المرجع السابق، ص٩١.

[٢١])- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان و إ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج١، ص٢٤٨.

[٢٢])- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص ١٧١.

[٢٣])- نفسه، ص ١٧١، ١٧٤،١٧٧، ١٩١. أنظر أيضا: بورويبة (رشيد)، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٧٧، ص٢٣٦، ٢٤٦. سالم =

إلى أنقاض تتناثر أحجارها في أرجائها، لا يظهر منها بشكل جلي سوى بعض من جوانب الجامع الكبير ومئذنته وجانب من قصر البحر وقصر المنار[٢٤].

٢- عوامل التطور العمراني للقلعة:

تختلف عوامل اختيار مواضع المدن و تطورها، فمن المدن ما بنيت في مواضع لها قداسة دينية، وأخرى ذات حصانة طبيعية، وأخرى في ملتقى الطرق التجارية الكبرى، وقد تجتمع هذه العوامل أو بعضها في بعض المدن[٢٥]، وفي جميع الأحوال وضع رجال الفكر العمراني الإسلامي مجموعة من الضوابط التي ينبغي توفرها في مواضع المدن لضمان استمرارها وازدهار عمرانها[٢٦].

وإذا عدنا بقلعة بني حماد إلى ظروف ظهورها وسايرنا تاريخ تطور عمرانها من التأسيس إلى الخراب لوجدنا أن هناك مجموعة من العوامل كانت وراء اختيار حماد لموضعها، ونفس العوامل كان لها الدور الكبير في استمرار عمرانها وتطوره قبل أن يطرقها الخراب.

=(السيد عبد العزيز)، تاريخ المغرب الكبير، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ج٢، ص ٨٠٣.

[٢٤])- عن هذه المنشآت انظر: بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٢٠٢-٢٠٣، ٢١٠-٢٢٠ GOLVIN.L, Le Magrib central a l'époque des Zirides recherches d'archéologie et d'histoire, Paris, 1957, P.182-192. GOLVIN.L, Recherche Archéologique à La Kalaa des Beni Hammad, Paris, 1965, P.199. De BEYLIE.L, La Kalaa de Beni Hammad, Paris, 1909, P. 32-84. MARÇAIS.G, L'Architecture musulman d'occident, Tunisie, Maroc, Algérie, Paris, 1954, P.81-84, 75.. ،٢٥١-٢٧٤.

[٢٥])- للمزيد أكثر أنظر: الموسوي (مصطفى عباس)، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٢.

[٢٦])- توجد هناك العديد من الكتابات التاريخية في هذا الشأن ولعل أهم تلك المصادر التي تحدثت عن شروط اختيار مواضع المدن في الإسلام نذكر ما يلي: ابن ابي الربيع (شهاب الدين احمد)، سلوك المالك في تدبير الممالك، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٦، ص ١٠٦. ابن الفقيه(ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني)، مختصر كتاب البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٠٨/١٩٨٨، ص١٤٣. القزويني(زكريا ابن محمد بن محمود)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٨. ابن ابي زرع(علي الفاسي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص٤٠. ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٠-٢٩٢. ابن الأزرق(ابو عبد الله محمد الاندلسي)، بدائع السلك في طبائع الملك، دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، د.ت، ج٢، ص ٧٦٤-٧٦٧.

أ-العامل السياسي:

تلعب المعطيات السياسية دورا كبيرا في اختيار مواضع المدن وتطور عمرانها أو انحصاره، فأما بالنسبة للمعطيات السياسية المرتبطة باختيار موضع القلعة فإن حماد كان يدرك أن بناء القلعة والإستقلال بها سيدفع بإبن أخيه الأمير باديس بن المنصور الزيري إلى محاربته، ومحاولة إخضاعه ثانية، كما كان حماد يدرك أن توسيع رقعة دولته سيكون على حساب القبائل الزناتية على الخصوص، ومن ثم فإن هذه القبائل لن تبقى مكتوفة الأيدي بل ستواجهه، ولم يستبعد حماد أيضا أن تجتمع زناتة وتشكل قوة خطيرة تهدد عاصمته.

وانطلاقا من هذه المعطيات عمل حماد على اختيار موقع يكون بعيدا عن الزيريين من جهة الشرق وعن الزناتيين من جهة الغرب، ومن ثم وقع اختياره على موقع كان موضعا لقلعة حصينة تحصن فيها قائد أكبر ثورة هددت الوجود الفاطمي ببلاد المغرب، ونعني به أبو يزيد بن مخلد بن كيداد، وهي القلعة التي قال فيها الخليفة الفاطمي المنصور بعد حصاره لأبي يزيد « لو علم الفاسق (يقصد أبو يزيد) موضعا أوعر من هذه القلعة لصار إليه»[٢٧].

كما أن حماد وإن اختار هذا الموضع الذي كانت فيه في الأصل قلعة إلا أنه لم يبن قلعته على أنقاض القلعة القديمة وإنما شيدها في أسفل الجبل من الناحية القبلية للقلعة الأولى، وفي هذا دافع سياسي كان يهدف من خلاله إيصال رسالة بطريقة غير مباشرة إلى باديس الزيري بأن له رغبة ذاتية في الظهور والتملك، وتظهر هذه الرغبة بصورة جلية في اختياره لموضع القلعة الذي لا يبعد عن مدينة المسيلة سوى بـ٢٦كلم، إذ كان يمكنه الاستقرار بهذه المدينة، كما كان من الممكن أن يستقر في مدينة أشير التي عُين عليها واليا.

أما فيما يخص أثر العامل السياسي في تطور عمران القلعة فيمكن رصده في أمرين أساسيين، الأول اتخاذها عاصمة للدولة بداية من تأسيسها في سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م إلى غاية بناء بجاية في سنة٤٦٠هـ/١٠٦٧م، وانتقال كرسي العرش إليها سنة٤٦١هـ/١٠٦٨م، وخلال هذه الفترة عرفت الدولة الحمادية أزهى أيامها، فبعد أن مرت بمرحلة البناء والاستقلال عن الزيريين (٣٩٨-٤٠٦هـ/١٠٠٨-١٠١٦م)، ثم فرضت هيبتها على القبائل الزناتية المجاورة، ووصل ملكها غربا إلى تنس وحوض الشلف، وشرقا إلى ما وراء جبال الأوراس وتبسة، وجنوبا إلى ما وراء ورقلة[٢٨].

الأمر الثاني يتمثل في الاستقرار السياسي بالقلعة، فقد اتسم الحكم الحمادي في بداية أمره بالاستقرار وعدم الصراعات فقد حكم حماد إلى غاية سنة

---

[٢٧])- عماد الدين ادريس، المصدر السابق، ص ٤٣٧.

[٢٨])- بوعزيز (يحيى)، «ملامح من قلعة بني حماد والدولة الحمادية وبجاية»، عن مجلة الثقافة، العدد ٣٦، السنة١٩٧٧، ص١٥.

٤١٩هـ/١٠٢٨م، ثم خلفه ابنه القائد مدة خمس وعشرين سنة وتوفي في شهر رجب ٤٤٦هـ/أكتوبر ١٠٥٤م، ثم خلفه ابنه محسن، إلا انه في عهد هذا الأخير ظهرت اضطرابات داخل البيت الحاكم قتل على إثرها محسن بعد تسعة أشهر من الحكم ثم خلفه ابن عمه بلكين بن محمد (٤٤٧-٤٥٤هـ/١٠٥٥-١٠٦٢م) ثم قتل وخلفه الناصر (٤٥٤-٤٨١هـ/١٠٦٢-١٠٨٨م)، ومن هنا يظهر أن الدولة الحمادية عرفت بالقلعة استقرارا داخليا لمدة حوالي ٤٦سنة قبل أن تظهر الصراعات والاغتيالات.

وبالإضافة إلى الاستقرار الداخلي لم تشهد القلعة هجوما خارجيا –قبل بناء بجاية- غير أربع مرات، الأول كان على يد الأمير باديس الزيري بين ٢٨ جمادي الأولى ٤٠٦هـ/١٣ نوفمبر ١٠١٥م و ٢٩ ذي القعدة ٤٠٦هـ/٩ ماي ١٠١٦م، وهجوم الأمير المعز بن باديس وحصاره للقلعة بين سنتي ٤٣٢-٤٣٤هـ/١٠٤٠-١٠٤٢م، الهجوم الثالث قاده علي بن ركان في حوالي سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، أما الهجوم الرابع فكان من طرف قبائل بني هلال بعد معركة سبيبة(٤٥٧هـ/١٠٦٥م)، وفي جميع هذه الحالات لم يقدر العدو على اقتحامها، وعلى العكس من ذلك كانت للحكام الحماديين سطوة كبيرة ووصلوا في غزواتهم وحروبهم إلى فاس التي افتتحها الأمير بلقين بن محمد في سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، وبعد دخول بني هلال بايع أهل تونس والقيروان وقسطيلية وصفاقس الأمير الحمادي الناصر ودخلوا في طاعته[٢٩].

ب- العوامل الطبيعية:

ب-١- الحصانة الطبيعية:

تعد الحصانة الطبيعية أهم العوامل التي روعيت في اختيار الموقع، فقد كان حماد يدرك خطورة الموقف، و أنه واقع بين فكي كماش يمثله الزيريون من جهة الشرق والزناتيين من جهة الغرب ومن ثم عمل على اختيار موضعا يكون محصنا طبيعيا، ويبدو أن حماد كانت له خبرة بالمنطقة، فقد رأينا بأنه ولي على أشير والمسيلة، ثم على أشير منذ تولي أخيه المنصور (٣٧٣-٣٨٦هـ/٩٨٣-٩٩٦م) حكم الدولة الزيرية، واستمر في عمله خلال حكم الأمير باديس وتوسعت ولايته لتصل إلى قسنطينة وتيجس والقصر الأفريقي[٣٠].

وحسب المصادر التاريخية والجغرافية فإن قلعة بني حماد كانت ذات حصانة ومنعة طبيعية متميزة، حيث يقول بشأنها البكري (ت٤٨٧هـ/١٠٩٥م):

---

[٢٩]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص ١٧١-١٧٣. أنظر أيضا: بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٢٧، ٤١، ٥٦، ٦٠-٦١.

[٣٠]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص ١٥٧، ١٥٨. أنظر أيضا: ابن الأثير (ابو الحسن علي)، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٦. بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص١٧-٢١.

«وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة»[٣١]، بينما يفصل الإدريسي (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م) أكثر في هذه الحصانة فيقول: «وهي في سند جبل سامي العلو، صعب الارتقاء، وقد استدار سورها بجميع الجبل، ويسمى تاقربست»، ثم يواصل الإدريسي حديثه ليحدد لنا نقطة ضعف القلعة والتي كانت في الجهة الشمالية منها في قوله:«وأعلى الجبل متصل بسيط من الأرض ومنه ملكت القلعة»[٣٢].

صاحب كتاب الاستبصار(٦هـ/١٢م) يقول في هذا الشأن: «وهي-القلعة- في جبل عظيم، وهي حصينة منيعة لا تمكن بقتال»[٣٣]، أما ياقوت الحموي فيذكر بأن حماد اختار موقع القلعة للتحصين والامتناع بها، وهو يشبهها بقلعة أنطاكية في حصانتها فيقول بأنها: «قلعة عظيمة على قمة جبل يسمى تاقربوست تشبه في التحصن ما يحكى عن قلعة أنطاكية»[٣٤].

ابن الأثير يرى أن بقاء ملك حماد وورثته من بعده إنما يرجع لحصانة القلعة ومنعتها فيقول: «ولولا تلك القلعة لأخذ -حماد- سريعا وإنما امتنع هو وأولاده بعده بها، وهي من امنع الحصون»[٣٥]، وفي موضع آخر يقول: «وهي من أحصن القلاع وأعلاها لا ترام، على رأس جبل شاهق لا يكاد الطرف يحققها لعلوها»[٣٦].

وعلى الرغم من الهجمات التي تعرضت لها القلعة خلال هذه الفترة من قبل الزيريين، إلا أن الحصانة التي كانت تتمتع بها كانت لها درعا واقيا، ولم يستطع أعداؤها النيل منها، وقد كان أول هجوم من قبل الأمير الزيري باديس نصير الدولة بتاريخ ٢٨ جمادي الأولى ٤٠٦هـ/١٣ نوفمبر ١٠١٥م واستمر إلى غاية وفاة باديس في يوم ٢٩ ذي القعدة ٤٠٦هـ/٩ ماي ١٠١٦م[٣٧]، أما الحصار الثاني فكان على يد المعز بن باديس في سنة٤٣٢هـ/١٠٤٠م وقد دام لسنتين، ولم يقدر على اقتحامها[٣٨].

---

[٣١]- البكري(ابو عبيد)، المصدر السابق، ص ٧١٠.

[٣٢]- الادريسي(ابو عبد الله محمد الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، القارة الافريقية وجزيرة الاندلس ، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص١٠٩.

[٣٣]- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٦٧.

[٣٤]- الحموي(ياقوت)، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٣.

[٣٥]- ابن الأثير (ابو الحسن علي)، المصدر السابق، ج٨، ص٣٧٢.

[٣٦]- نفسه، ج٩، ص ٣٧٣.

[٣٧]- بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص ٢٧.

[٣٨]- يذكر ابن خلدون بان هذا الحصار دام لمدة طويلة في حين حددها ابن عذارى بسنتين إلا أنه يذكر بان بداية الحصار كانت في سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م. انظر: ابن خلدون=

لم يكتف الحماديون بالحصانة الطبيعية لمدينتهم، وإنما أحاطوها بسور من جميع جهاتها (أنظر المخطط الملحق والصورة رقم ١، ٢)، يمتد على مسافة٧كلم، بسمك يتراوح بين1,20 و1,60م، وهو يساير مرتفعات قمة الغورين في الجنوب الغربي، وجبل تقربوست في الجهة الشمالية، ويساير في الجهة الشرقية وادي فرج قبل أن يتسلق الجبل، وهو يأخذ شكلا غير منتظم، عرض نصفه الجنوبي أوسع بمرات كثيرة عن نصفه الشمالي الذي يمتد في شكل طولي.

فتحت في هذا السور ثلاثة أبواب، هي باب جراوة في الجهة الجنوبية الشرقية الذي يؤدي إلى برج غدير عبر قنطرة سيدي عيسى التي لا تبعد عنه سوى بحوالي ٢٨٠م جنوبا. باب الأقواس يقع في الجهة الشرقية، أما باب الجنان فينفتح في الجهة الغربية أسفل قمة الغورين.

وتدعيما لسور القلعة أقام الحماديون برج المنار(أنظر الصورة رقم٣) بالقرب من باب الأقواس وقد كان له دور في الاستطلاع، حيث كان مزودا بمرايا ترسل وتستقبل إشارات ضوئية من أماكن بعيدة تصل حسب بعض الأقوال إلى بجاية وتونس[٣٩].

ب-٢- الموارد المائية:

يعد الماء من أبرز الشروط التي يؤكد عليها رواد الفكر العمراني، فهو المحرك الرئيسي لعجلة الحياة للإنسان والمدن بصفة عامة، ووجوده بموقع المدينة ومحيطها له انعكاسات كبيرة على نموها وتطورها، وكثيرا ما تشيد المصادر التاريخية والجغرافية بالمدن التي يتوفر فيها الماء.

وتعد قلعة بني حماد من المدن الوافرة بالمياه على اختلاف مصادرها، فهي من جهة مبنية على ضفة وادي فرج الذي يحدها من الجهة الشرقية، وقد وصفه صاحب كتاب الاستبصار بأنه: «نهر كبير»[٤٠]، ولا يزال هذا النهر جاريا وتتدفق منه المياه بشكل كبير وقد وقفنا عليه في الزيارة الميدانية، وقد كان الحماديون يستغلون مياهه بعدما شيدوا ساقية تربطه بأعلى المدينة حيث يقع باب الأقواس، ولا تزال بعض بقايا هذه الساقية ماثلة إلى يومنا هذا، وتقدر غزارته بـ٦٠م^3 في الثانية، ومعدله السنوي في حالة الفياضان يصل إلى

=(عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧٢. ابن عذاري(المراكشي)، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٥.

[٣٩])- بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٢٠٢-٢٠٣. أنظر أيضا: العربي(اسماعيل)، المرجع السابق، ص ١٢٣

MARÇAIS.G, op-cit, P.92. GOLVIN.L, Le Magrib central, op-cit, P185-186. De BEYLIE.L, op-cit, P. 32-34

[٤٠])- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٦٨.

٦٣٧٩٠٠م٣[٤١]، ومن خلال دراستنا لطبوغرافية الموقع تأكد امكانية جلب الماء إلى القلعة من هذا النهر حيث تبين أن الفتحة التي تقع عند باب الأقواس لا يزيد ارتفاعها على مستوى سطح البحر عن ١٠٥٦م بينما يأخذ النهر في الإرتفاع عن هذا المستوى في النقطة المشار اليها في الصورة المرفقة بالبحث (أنظر الصورة رقم٤)، ليتجاوز بداية من تلك النقطة مستوى ارتفاع باب الأقواس ويصل في بعض النقاط إلى ما يزيد عن ١١١٥م، كما توجد بالموقع وفي اسفل برج المنار بقايا لساقية [٤٢] يمكن القول بشأنها أنها هي الأخرى كانت مجلوبة من نفس النهر ولأن مستواها منخفض مقارنة بالأجزاء العلوية من المدينة كقصر المنار ودار البحر فإنها كانت خاصة بحي جروايـة الذي يوجد في مستوى أقل انخاضا.

ويتغنى الشاعر ابن حماد في قصيدتين بعين كانت بالقلعة تسمى عين السلام جاء في القصيدة الأولى:

وهل أردن عين السلام على الصدى فابرد من حر الضلوع النواهل

أما في القصيدة الثانية فيصف فيها عذوبة وصفاء ماء عين السلام، فيقول:

على عين السلام صب غذاه ماؤها العذب النمير
تأود ايكها وجرت صباها وشمالها كما فتق العبير
وابرد ما يكون الماء فيها واندى حين يحتدم الهجير
وما ادري ايجري فوق در أم ابتسمت بمنبعها الثغور[٤٣]

وبالإضافة إلى وادي فرج وعين السلام كانت القلعة تضم العديد من الآبار والصهاريج، ذكرتها المصادر كصاحب الاستبصار الذي أشار إلى صهريج دار البحر وقال بأنه: «صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق يدخله ماء كثير»[٤٤]، وقد أكدت الحفريات وجود هذا الصهريج(أنظر الصورة رقم٥)، وهو يتوسط القصر ويعد اكبر الأحواض بالقلعة حيث يبلغ طوله٦٧م وعرضه٤٧م أما عمق فقد يصل إلى 1,6م[٤٥].

---

٤١)- خرباش (عبدالنور)، نظام ومنشآت الري في قلعة بني حماد دراسة أثرية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، ٢٠٠٨/٢٠٠٩، ص ١٨،١٩، ٢٥،٢٦. يشير الباحث إلى أن امكانية جلب الماء من وادي فرج باتجاه باب الأقواس غير ممكنة لكن المعطيات الطبوغرافية مثلما اوضحناه في المتن تؤكد بأن الأمر ممكن، ويشير إلى أن القناة المارة عبر باب الأقواس مجلوبة من وادي الجفين وهو بعيد بشكل أكبر مقارنة وادي فرج.

٤٢)- نفسه، ص٤٣.

٤٣)- ابن حماد(ابو عبدالله محمد الصنهاجي)، المصدر السابق، ص١٤

٤٤)- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٦٨.

45 -(GOLVIN.L, Le Magrib central, op-cit, PP188-189.

كما كشفت الحفريات عن وجود صهاريج أخرى، الأول يقع جنوبي المدينة وهو على شكل مستطيل١٢×٦م وعمقه١م، أما الثاني فهو يمثل الحوض العلوي لقصر المنار، وهو ذو شكل مستطيل4,90×1,30م وعمقه0,9م كان الماء يأتيه عبر قناة محفورة في الأرض، الحوض الثالث يعتبر الحوض السفلي لقصر المنار(أنظر الصورة رقم٦) حيث يقع جنوب غربي الحوض العلوي وهو ينخفض على مستواه بمترين غير أنه أكبر منه (6,65م٢) الحوض الرابع عثر عليه في صحن الجامع، وهو ذو مقاسات تقدر بـ11,15×5,40م وارتفاعه الداخلي2,80م كان يزود بالماء عبر قناة، وهو مغطى بقبو تهدمت أجزاء منه[٤٦].

أما الآبار فقد كانت هي الأخرى عديدة مما يدل على توفر القلعة على مياه جوفية كثيرة، حيث تم الكشف عن مجموعة من الآبار في كل من دار البحر وقصر المنار، الأول مكون من حوض مستدير قطره الداخلي11,85م وبجانبه ثلاث غرف مبنية تحت الأرض يوصل إليها الماء من الحوض عبر قناة، أما الثاني فهو يقع غربي القسم الجنوبي الأوسط من القصر، يتشكل هذا الجب من حوضين متوازيين طولهما13,85م وعرضهما3,50م وارتفاعهما 2,50م، وهما يتصلان ببعضهما البعض بواسطة خمسة أبواب معقودة فتحت في السور الفاصل بينهما[٤٧].

ب-٣- الموارد الاقتصادية:

يمكن إدراج تحت هذا العنصر مجموعة من الشروط التي وضعها رجال الفكر العمراني الإسلامي، وهي تتمثل في طيب المزارع، وطيب المراعي، والقرب من الاحتطاب[٤٨]، إن هذه الشروط يمكن القول بأن القلعة كان لها نصيب كبير منها، فهي ذات تربة خصبة كما جاء في المصادر، حيث يذكر الإدريسي بأنها من أحسن البلاد خصبا وأغزرها خيرا وحنطتها رخيصة وأن الفلاحة بها «إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت، فأهلها أبد الدهر شباع، وأحوالهم صالحة»[٤٩].

صاحب كتاب الاستبصار هو الآخر يقول بأنها: «على نظر عظيم كثير الزرع وجميع الخيرات»[٥٠] ويبدو أن المقصود من النظر العظيم هو سهل

---

٤٦)- بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٢١٢، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٤. أنظر أيضا:
BOURUIBA.R, L'art religieux musulman en Algérie, Alger , 1981, P.29.

٤٧)- بورويبة(رشيد)، المرجع السابق، ص٢٧٢.

٤٨)- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج١، ص٢٩١. أنظر أيضا: ابن ابي زرع(علي الفاسي)، المصدر السابق، ص٤٠.

٤٩)- الادريسي(ابو عبد الله محمد الشريف)، المصدر السابق، ص١١٧.

٥٠)- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٦٧.

الحضنة، أما ياقوت الحموي فيقول بأنها: «تحف بها رساتيق ذات غلة، وشجر مثمر كالتين والعنب في جبالها وليس بكثير»[٥١].

ومن هنا نرى بأن القلعة كانت ذات تربة خصبة، وكانت حولها مزارع كثيرة وبساتين، خاصة في ظل وجود وادي فرج الذي من دون شك كانت تحف به جنات، وقد سمي أحد أبواب القلعة بباب الجنان نسبة إلى الجنات، مما يدل على أنه كان يفتح على جنات كبيرة تستحق أن تكون إسما لهذا الباب، الذي كان أحد الأبواب الثلاثة الرئيسية للمدينة.

وقد صاحب هذه التربة الخصبة والمزارع الوافرة المراعي الكثيرة والمتميزة، ونستشف ذلك من نص الإدريسي الذي يقول بأن: «لحومها طيبة سمينة...كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف إليها تصلح فيها السوائم»[٥٢]، فطيب اللحم وسمنه دلالة على جودة المراعي ووفرتها، كما أنها تدل على جودة الثروة الحيوانية، التي هي الأخرى من دون شك كانت كثيرة، فاشتهار القلعة بالصناعات النسيجية يعني وجود المادة الأولية وهي الصوف، والتي كانت على حسب ياقوت الحموي شديدة النعومة[٥٣].

أما الاحتطاب فإن المصادر لا تنفي ولا تؤكد وجوده بالقلعة، ولكن حتى لو لم يكن بها فهو متوفر في المناطق المجاورة كبجاية والقل وبونة[٥٤]، و حسب بعض الدراسات الحديثة فإن الجبال التي تشرف على القلعة تكثر بها أشجار البلوط والعرعار والأرز والزيتون[٥٥].

ب-٤- المعطيات المناخية:

أولت مصادر الفكر العمراني الإسلامي أهمية كبيرة لجودة الهواء واعتدال المكان، واعتبرت أن صحة الإنسان مرهونة به، وكثيرا ما أشادت بالمدن التي عرفت بطيب هوائها وصفاء جوها[٥٦]، ومن هذه المدن قلعة بني حماد، حيث يذكر بشأنها الإدريسي: «والحنطة تختزن بها العام والعامين، ولا يدخلها الفساد، ولا يعتريها تغيير»[٥٧].

---

٥١)- الحموي(ياقوت)، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٣.

٥٢)- الادريسي(ابو عبد الله محمد الشريف)، المصدر السابق، ص١١٧.

٥٣)- الحموي(ياقوت)، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٣.

٥٤)- بورويبة(رشيد)، المرجع السابق، ص١٣٤.

55 -(BEYSSADE.P, Monographie de la Commune Mixte des Maadid, Imprimerie Officielle, Alger, 1948, P11, 12, 15.

٥٦)- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج١، ص٢٩١.

٥٧)- الادريسي(ابو عبد الله محمد الشريف)، المصدر السابق، ص١١٧.

وقد أثبتت الكشوفات الأثرية وجود عدة مطامير بالقلعة، كتلك التي عثر عليها في صحن دار قريبة من قصر السلام[٥٨]. كما عبر ياقوت الحموي عن جودة هواء القلعة في قوله: «لأهلها صحة مزاج ليس لغيرها»[٥٩].

ج-العامل الإقتصادي:

لقد استغل الحماديون الموارد الطبيعية التي كان يتوفر عليها الموضع والأقاليم القريبة منه، حيث استغلت خصوبة التربة في إقامة المزارع والجنات والحدائق، واستغلت المحاجر في البناء والتعمير، حيث يظهر استعمال الحجارة في أغلب المباني المكتشفة بالقلعة بداية من السور والجامع إلى دار البحر وقصر المنار، كما أنهم استغلوا الثروة النباتية والحيوانية و المعدنية في إقامة ورشات الحرف والصنائع، حيث كانت تصنع بالقلعة «اكسية ليس لها مثيل في الجودة والرقة الا الوجدية التي تصنع بوجدة، يساوي كساء عيد من عمل القلعة ٣٠دينارا»[٦٠]، وكانت تعرف هذه الاكسية بالاكسية القلعية وهي تتميز بنعومة صوفها ونسيجها المتقن والمطرزة بالذهب[٦١].

كما تدل الصناعات الفخارية والخزفية على الرقي الفني الذي بلغه الفنان الحمادي بالقلعة، فقد تم العثور على بقايا فخارية وخزفية عديدة ومتنوعة الاشكال والزخارف، فقد عرف الحماديون الزخرفة بالمينا، وانتجوا الخزف ذي البريق المعدني[٦٢]، وزينوا بناياتهم ببلاطات وفسيفساء خزفية ذات اشكال وزخارف والوان مختلفة[٦٣].

الصناعات المعدنية هي الاخرى كانت متطورة بالقلعة، ولا زالت بقايا بعض التحف الى الآن، وهي معروضة بالمتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الاسلامية والمتحف الوطني سيرتا والمتحف الوطني بسطيف، وهي عبارة عن مجموعة من الحلي عبارة عن خواتم وابازيم واقراط ودبابيس، وتحف اخرى على شكل عصفرين ورجل اسد، وقطع معدنية مجهولة الهوية بعد تآكلها[٦٤].

---

[٥٨])- بورويبة(رشيد)، المرجع السابق، ص١٣٠.

[٥٩])- الحموي(ياقوت)، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٣.

[٦٠])- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٧٠.

[٦١])- الحموي(ياقوت)، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٣.

[62] -(GOLVIN.L, Recherche, op-cit, PP195-216. ACHILLER.R, « La Kalaa de Beni Hammad», Recueil des Notice de la Société Archéologique du Département de Constantine, 1909, P.205.

[63] -(- GOLVIN.L, Recherche, OP-CIT, P.199. – MARÇAIS.G, OP-CIT, P.99.

[64] -(- GOLVIN.L, Recherche, OP-CIT, PP. 261,263,266,267,270,271.

انظر ايضا: بورويبة(رشيد)، مدن مندثرة تاهرت سدراتة اشير قلعة بني حماد، نشر وزارة الاعلام والثقافة، مركب الطبع رغاية، الجزائر، ١٩٨١، ص١٢٦-١٢٧.

وبالاضافة الى هذه الصنائع شهدت القلعة صناعات اخرى، كالصناعات الزجاجية، حيث اكتشف فرن كان مستعمل خصيصا لهذه الحرفة، وحوله قطع زجاجية متناثرة عبارة عن اعناق ومصبات ومقابض[٦٥].

إن انتشار الحرف والصنائع بالقلعة وتميزها عن غيرها بالجودة كما كان الحال بالنسبة للمنتجات النسيجية دفع بالقلعة إلى استقطاب التجار من نواحي وأقاليم عدة، فقد كانت حسب البكري «مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وساير بلاد المغرب»[٦٦]، وقد ساعدها في الوصول إلى هذه المرتبة هو إشرافها على الطرق التجارية، حيث كان يربطها بالقيروان طريقان وطريق نحو تنس وطريق إلى بجاية[٦٧]، وقد انعكس هذا على عمران المدينة فاستكثر بها حماد الفنادق، وقصدها من البلاد القاصية أرباب الصنائع لنفاق أسواق الحرف والصنائع بها[٦٨].

د-العامل الاجتماعي:

لقد تفطن حماد عند تأسيسه لقلعته للعامل الاجتماعي وأولى له أهمية بالغة، حيث أحضر قبيلة جراوة وأفرد لها حيا يقع في الركن الجنوبي الشرقي من القلعة يحيط به سور يفصله عن باقي الأحياء[٦٩]، وأجبر سكان مدينتي المسيلة وحمزة للنزوح إليها بعد أن خربهما[٧٠].

وتبدو حكمة حماد في اختياره للتركيبة البشرية التي ستتشكل منها قلعته، حيث عمل على تنويع هذه التركيبة، بحيث لا يمكن لأحد منها أن تشكل قوة خطيرة قد تهدد أمن المدينة وربما الدولة ككل، كما أنه حرص على التنويع حتى تتلاقح الأفكار والتجارب وتزدهر المعارف والحرف والصنائع بالقلعة، لقد كان بإمكان حماد أن يكتفي بنقل أهل المسيلة التي هي أقرب المدن (٢٦كلم) إلى القلعة، ولكنه تعمد إحضار سكان من قبائل شتى، وهي التركيبة التي ازدادت تنوعا مع الوقت وصرنا نرى في القلعة سكانا مسيحيين خصصت لهم كنيسة وبعد غزو الهلاليين لتونس وفد عليها أهل القيروان[٧١].

---

[65] -(GOLVIN.L, Recherche, OP-CIT, P.235-245.

[٦٦])- البكري(ابو عبيد)، المصدر السابق، ج٢، ص٧١٠.

[٦٧])- الادريسي (ابو عبد الله محمد الشريف)، المصدر السابق، ص١٠٦، ١١٧-١١٨، ١٥٧-١٦٠.

[٦٨])- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧١.

[٦٩])- الحموي(ياقوت)، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٣.

[٧٠])- ابن خلدون(عبدالرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧١.

[٧١])- ابن عذاري (المراكشي)، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٤. انظر ايضا: البكري(ابو عبيد)، المصدر السابق، ص ٧١٠. بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٥٤، ١٥٨-١٦١.

MARÇAIS.G, «La Kalaa des Beni Hammad d'après deux Publications Récentes»,Reccuiel des Notice de la Société Archéologique du Département de Constantine, 1908, P165.

لقد كان لتنوع التركيبة البشرية بالقلعة دور إيجابي في استقرار واستتباب الأمن داخل القلعة، حيث لم تسجل لنا المصادر التاريخية صراعات بين أحياء المدينة وسكانها، وانعكس –من دون شك- أيضا على الجانب الحرفي الذي تنوعت فيه المصنوعات تقنيا وفنيا.

وبفضل هذه العوامل وغيرها إستبحر عمران القلعة «واتسعت في التمدن ووصل إليها من الثغور القاصية البلد البعيد طلاب العلم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها»[٧٢]، وصارت «من أكبر البلاد قطرا، وأكثرها خلقا، وأغزرها خيرا، وأوسعها أموالا، وأحسنها قصور ومساكن»[٧٣]، كانت القلعة يقول صاحب الاستبصار «مدينة عظيمة...(بها) مباني عظيمة وقصور منيعة»[٧٤].

٣- أسباب خراب القلعة:

من العرض السابق يظهر أن القلعة كانت تحتل موقعا استراتيجيا يتوفر على كل شروط الحياة حصانة طبيعية، مياه مستعذبة، تربة خصبة، موارد اقتصادية زراعية ورعوية وصناعية، ومناخ ملائم وهواء نقي، فضلا عن مركزها الإداري، وبهذه العوامل اتسع عمرانها وتطور وصارت مدينة عظيمة يحتوي عمرانها على مختلف المرافق، مساجد قصور فنادق أسواق رائجة وتجارة رابحة، علماء وصناع وحرفيون، سكان من مختلف القبائل والأجناس ذوو ثقافات وتقاليد متنوعة، بربر وعرب ومسيح، كل هذا لم يكن مدعاة إلا لنمو القلعة واستبحار عمرانها ولم يكن داعيا إلى خرابها فأين الخلل؟

من خلال تتبع تاريخ القلعة يظهر لنا أنها مرت بمرحلتين أساسيتين، المرحلة الأولى تمتد بين سنتي ٣٩٨-٤٦١هـ/١٠٠٨-١٠٦٨م وفيها شهدت القلعة أزهى أيامها، فقد كانت مقرا وعاصمة للدولة الحمادية، تطور عمرانها وقصدها الناس من كل مكان، وعمرت أسواقها حتى صارت مدينة عظيمة.

أما المرحلة الثانية فيمكن تحديدها بين سنتي ٤٦١-٥٤٧هـ/١٠٦٨-١١٥٢م وفيها تم بناء مدينة بجاية وانتقل إليها كرسي الحكم وصارت العاصمة الرئيسية للدولة الحمادية، في حين بدأت القلعة تفقد أهميتها على الرغم من بعض الأعمال المعمارية التي أنشئت فيها خلال هذه المرحلة، كما هو الحال بالنسبة للمنصور الذي شيد بها قصر المنار وقصر الكوكب وقصر الملك، واستقر بها مدة سنتين في أول حكمه (٤٨١-٤٨٣هـ/١٠٨٩-١٠٩١م) قبل أن ينتقل إلى

---

[٧٢])- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧١.

[٧٣])- الادريسي(ابو عبد الله محمد الشريف)، المصدر السابق، ص١٠٩.

[٧٤])- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٦٧-١٦٨.

بجاية[٧٥]، ثم عاد إليها في فترات لاحقة لكننا لا نملك التاريخ بالتحديد، حيث يذكر ابن خلدون أن المنصور بعد فتحه لتلمسان في سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م «انكفأ راجعا إلى حضرته بالقلعة»[٧٦].

وبعد وفاة المنصور سنة ٤٩٨هـ/١١٠٥م خلفه ابنه باديس وقد كان بالقلعة فخرج منها واستقر ببجاية إلى أن وافته المنية بها قبل أن يكمل سنة من حكمه، ثم خلفه أخوه العزيز الذي استقر هو الآخر ببجاية[٧٧]، وفيه يقول ابن الخطيب: «هو الذي استوطن بجاية ومن بعد ولايته شرعت القلعة في الخراب»[٧٨]، ومنذ ذلك التاريخ صارت بجاية هي العاصمة الأولى والرئيسية للدولة إلى غاية نهاية حكمهم، وقد كان آخر الأمراء الحماديين يحيى بن العزيز زار القلعة في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م و نقل ما بقي بها من ذخائر إلى بجاية[٧٩]، ولم يمر على القلعة وقت طويل حتى هاجمها الموحدون في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وقتلوا بها ثمانية عشر ألفا وأضرموا في مساكنها النيران وخربوا عمرانها[٨٠].

وبعد هذه التقدمة التاريخية تظهر معالم الظروف التي كانت وراء خراب القلعة والتي يمكن القول بأن بناء مدينة بجاية واتخاذها عاصمة للدولة يعد من أهم الأسباب وأبرزها، حيث كان بناء هذه المدينة في سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٦-١٠٦٧م، ويرجع اختيار الناصر لموضعها واختطاطها لمشورة محمد بن البعبع وزير تميم بن المعز الذي بعثه لعقد الصلح مع الناصر، حيث يذكر ابن الأثير بأن محمد بن البعبع لما اختلا بالناصر قال له بأن: «تميم مشغول مع عبيده قد استبد بهم واطرح صنهاجة وغير هؤلاء ولو وصلت بعسكرك ما بت إلا فيها لبعض الجند والرعية لتميم وآنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد افريقية»[٨١].

ومن خلال هذا النص يظهر أن الدافع إلى بناء بجاية هو اتخاذها ميناءا تنطلق منه الجيوش الحمادية لحصار المهدية عاصمة الزيريين من الناحية البحرية وهي النقطة التي يمكن تملكها منها، خاصة وأن الناصر كانت له أطماع لضم إفريقية إلى ملكه منذ استنجاد أهل القيروان وتونس وقسطيلية وصفاقس به بعد

---

[٧٥]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧٤-١٧٦. أنظر أيضا: بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٧٤، ٧٧.

[٧٦]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧٦.

[٧٧]- نفسه، ص١٧٦. أنظر أيضا: بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٧٩، ٨٠.

[٧٨]- ابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الأعلام، جزء خاص بتاريخ بني حماد، تقديم رابح بونار، نشر بمجلة الأصالة، العدد ١٩، ١٩٧٤، ص٩٥.

[٧٩]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧١.

[٨٠]- نفسه، ص١٧٧. أنظر أيضا: أنظر أيضا: ابن الأثير(ابو الحسن علي)، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٣. بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص١٠٦.

[٨١]- ابن الأثير (ابو الحسن علي)، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٧٤.

انهزام الزيريين أمام الهلاليين وانحصارهم في المهدية، ولما استنجدت به قبائل الأثبج ضد رياح في سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م وخرج إلى تونس في جيش من صنهاجة وزناتة وعرب الأثبج وعدي، ومن جهة أخرى أمد الأمير الزيري تميم قبائل رياح المال والسلاح والتقوا الناصر في سبيبة إلا أن الناصر انهزم وولى راجعا إلى القلعة، كما عاود الكرة في سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٦-١٠٦٧م، وحاصر الاربس حتى افتتحها، وفي السنة الموالية افتتح القيروان[٨٢].

وإذا كان هذا هو الدافع من بناء بجاية حسب رواية ابن الأثير فإن لصاحب كتاب الاستبصار وابن خلدون رأي آخر، حيث يذكر الأول بأن المنصور –وفي الحقيقة هو الناصر- بعد هزيمة سبيبة لجأ إلى القلعة وبها: «نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا عليه ببلاده فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعا بهم، وكان لا يقدر على التصرف في بلاده، فطلب موضعا يبني فيه مدينة ولا يلحقه فيها العرب فدل على موضع بجاية»[٨٣].

أما ابن خلدون فيذكر بأن بنو هلال نازلوا القلعة «وخربوا جنباتها و أحبطوا عروشها وعاجوا على ما هنالك من الأمصار ثم طبنة والمسيلة فخربوها، وأزعجوا ساكنيها وعطفوا، على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، وغوروا المياه، واحتطبوا الشجر ،واظهروا في الأرض الفساد، وهجروا ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالها في الأمصار وملكوا عليهم الضواحي يتحينون جوانبهم ويقعدون لهم بالمراصد ويأخذون لهم الإتاوة على التصرف في أوطانهم، ولم يزل هذا دأبهم حتى هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة واختط بالساحل مدينة بجاية، ونقل إليها ذخيرته، وأعدها لنزله، ونزلها المنصور من بعده فرارا من ضيم هذا الجيل (بني هلال) وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال وتوعر مسالكها على رواحلهم واستقروا بها وتركوا القلعة»[٨٤].

ومن هذه النصوص يظهر أن بناء بجاية على حسب ابن الأثير كان بغرض استخدامها نقطة انطلاق لمهاجمة المهدية عاصمة بني زيري من الناحية البحرية، إلا أن هذا لم يحدث، فالمصادر التاريخية لا تذكر أي غزوة للناصر على المهدية بحرية كانت أو برية بعد انتقاله إلى بجاية، وربما كانت أبعد نقطة

---

[٨٢]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٧٣. أنظر أيضا: بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٦١-٦٥. ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج١، ص٣٩٩. ابن الأثير (ابو الحسن علي)، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٧٢-٣٧٣.

[٨٣]- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١٢٩.

[٨٤]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٩، ٢٠.

وصل إليها بعد تشييده بجاية هي القيروان التي افتتحها في سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م.

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول أن الناصر كان له هذا الطموح إلا أن إمكانياته لم تكن تسمح بذلك، حيث لا توجد هناك إشارة إلى استغلال الحماديين للأسطول البحري قبل عهد العزيز بن المنصور الذي فتح به جزيرة جربة، ومن بعده استعان يحيى بن العزيز، بالأسطول البحري و حاصر المهدية برا وبحرا خلال سنة ٥٢٩هـ/١١٣٦م[٨٥].

أما صاحب كتاب الاستبصار وابن خلدون فهما يربطان الحدث بغزو بني هلال لبلاد الحماديين وتغلبهم عليها وتضييقهم الخناق على الناصر وحصاره في القلعة، بعد أن خربوا القرى والمدن، وأزعجوا السكان، وفرضوا عليهم الإتاوات والمغارم، وصعب على الناصر التحكم في بلاده، ورد المظالم عنهم، الأمر الذي دفع بالناصر إلى اختيار موضع موصول بالبحر يصعب على بني هلال حصاره.

ويبدو أن لهذا الرأي ما يسنده تاريخيا، حيث يشهد التاريخ أن الحماديين في مواجهاتهم للهلاليين لم يسجلوا سوى الهزائم والانتكاسات، حيث تذكر المصادر أن المعز بن باديس استنجد بالقائد بن حماد لرد القبائل الهلالية عن القيروان، فأرسل إليه كتيبة من ألف فارس، إلا أن الجيش الصنهاجي انهزم في نهاية الأمر، وتملك بنو هلال القيروان في سنة (٤٤٩هـ/١٠٥٧م) [٨٦]، ثم تقدم الهلاليون إلى المغرب الأوسط، وحاول الحماديون صدهم لكن من دون جدوى، كما حاولت قبائل زناتة ردهم وانهزمت هي الأخرى أمامهم، ولم يجد الحماديون غير اللجوء إلى الصلح، واكتفوا بإدارة المدن في حين تملك بنو هلال الأرياف[٨٧].

وفي سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م أجاب الناصر بن علناس دعوة قبائل الأثبج وعدي وخرج معهم لحرب قبائل رياح بافريقية إلا أنهم انهزموا في معركة سبيبة بعد أن تخاذلوا فيما بينهم، واستغلت القبائل الهلالية الموقف وتقدمت إلى البلاد

---

[٨٥]- نفسه، ص١٦١-١٦٢. أنظر أيضا: ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج١، ص٣١٢. ابن أبي دينار (ابو عبد الله محمد بن أبي القاسم)، المؤنس في اخبار افريقية وتونس، مطبعة النهضة بتونس، ١٣٥٠هـ، ص٨٥. بورويبة (رشيد)، المرجع السابق، ص٩٤-٩٨، ١٢٨.

[٨٦]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٥. انظر أيضا: عبد الحميد (سعد زغلول)، تاريخ المغرب الكبير، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٩٠، ج٣، ص٤٢٩-٤٣٧.

[٨٧]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٩-٢٠. انظر أيضا: عبد الحميد (سعد زغلول)، المرجع السابق، ص٤٢٩-٤٣٧.

الحمادية وحاصروا الناصر بالقلعة، و ملكوا ما جاورها من المدن والقرى[٨٨]، ومن ثم أدرك الناصر خطورة الموقف، فهو من جهة لم يكن قادرا على مواجهة هذه القبائل، ومن جهة ثانية لم تكن هناك قوة يمكنه أن يستنجد بها، حيث كانت الدولة الزيرية جروحها لم تلتئم بعد، و كانت قبائل زناتة ربما هي الملجأ الأخير إلا أنها هي الأخرى لم تصمد أمام الهلاليين، وهنا يمكن لنا أن نتساءل ألم يكن بمقدور الناصر أن يصمد بالقلعة ويتحصن بها خاصة و أن القلعة اشتهرت بحصانتها؟.

إن المعطيات التاريخية تشهد على أن القلعة كانت حصينة، فقد سبق و أن حوصرت أربع مرات (الأول: ٤٠٦هـ ١٠١٥-١٠١٦م ، الثاني: ٤٣٢-٤٣٤هـ/١٠٤٠-١٠٤٢م، الثالث: حوالي سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، الرابع: ٤٥٧هـ/١٠٦٥م) ولم يقدر الأعداء على فتحها وولوا على أعقابهم خائبين[٨٩]، أما الهجوم الذي سبق الحصار الأول وفتحت أثناءه القلعة، فإن ذلك يرجع إلى أسباب خارجة عن نطاق الحصانة، حيث قرر حماد الخروج من القلعة وعدم التحصن بها وملاقاة العدو بعيدا عنها ليمنعها من الخراب، ولم يترك فيها إلا حامية صغيرة بقيادة إبراهيم، لكن هذا الأخير لما رأى الأمير باديس صرف إليها جيشا لفتحها قام بتخريبها نكاية في العدو[٩٠].

ولما انهزم حماد وتفرق جمعه وحلفاؤه من زناتة الذين لجأ إليهم، ورأى ما لحق بالقلعة من ضرر، قرر العودة إليها، والتحصن بها، وجمع المؤونة اللازمة، وهنا لابد أن نقف عند هذه الحادثة لنتبين الأسباب الحقيقية التي كانت وراء خروج حماد من قلعته وعدم التحصن بها في أول الأمر، إذ لا يمكن تقبل أن حماد كان يظن أن خروجه منها سيلفت نظر العدو عنها، فالقلعة كانت بالنسبة لحماد وورثته «مركزا لذخائرهم ومستودع أسلحتهم»[٩١]، وقد كان باديس من دون شك يدرك هذا تماما فشن عليها هجوما.

يبدوا أن خروج حماد من القلعة لم يكن بداعي عدم إيمانه بحصانتها وإنما كان يفتقد إلى الثقة في قدرة قوته على تحمل الهجوم، ولذلك قرر الخروج منها والبحث عن حلفاء آخرين يقوي بهم عضده، وكان ذلك الحليف بعض من قبائل زناتة، لكنها في الأخير خذلته وانحازت إلى باديس، ويبدوا أيضا أن حماد لم يكن يثق فقط في القدرة العسكرية لجنده وإنما في ولائهم له، وقد سبق وان لدغ من هذا الجحر مرات، وعبر عن هذا الشعور صراحة لما رأى موكب رفاة

---

[٨٨]- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج١، ص٣٩٩. انظر أيضا: ابن الأثير (ابو الحسن علي)، المصدر السابق، ج٨، ص٣٧٢-٣٧٣.

[٨٩]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص ١٧١-١٧٣.

[٩٠]- ابن عذاري(المراكشي)، المصدر السابق، ج١، ص٢٦٥-٢٦٨.

[٩١]- الادريسي(ابو عبد الله محمد الشريف)، المصدر السابق، ص١١٧.

الأمير باديس والجند ملتف حوله فقال: «مثل هؤلاء يخدم الملوك، وصلت أنا إلى افريقية في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلا من أحسنت إليه، وأنعمت عليه، فعدت إلى القلعة، وما بقي معي منهم إلا أقل من ستمائة، وأنا بين أظهرهم أرجى، وهذا ميت أطاعه هؤلاء كما كان حيا»[٩٢].

وإذا كان هذا هو الحال مع حماد فإن الناصر بن علناس احتمى بالقلعة في أول هجوم تعرض له من طرف قبائل بني هلال خلال سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م وتحصن بها مدة جاوزت ثلاث سنوات، وعلى الرغم من صمود القلعة في وجه بني هلال إلا أنه قرر في الأخير اللجوء إلى مدينة بجاية في سنة٤٦١هـ/١٠٦٨م[٩٣].

ويبدوا أن لجوء الناصر إلى بجاية لم يكن بدافع إحساسه بأن القلعة لا يمكنها أن تصمد أمام الهلاليين، وإنما كان بسبب عدم قدرته على تحمل التخريب والتدمير وقطع الطرق والمواصلات التي ستعزل المدينة عن عالمها الخارجي، ولذلك لجأ إلى بناء مدينة بجاية، التي وإن حاصرها بنو هلال من البر فإن المؤن ستبقى ترد عليها من البحر، وهي نفس الطريقة التي اهتدى إليها المعز بن باديس، لما تخلى عن القيروان ولجأ إلى المهدية[٩٤].

ومن هنا يظهر أن رأي ابن الأثير يكمل ما جاء به كل من صاحب كتاب الاستبصار وابن خلدون، حيث يمكن القول أن خراب القلعة أساسا مرده إلى:

أولا: بناء مدينة بجاية وانتقال كرسي الحكم إليها، وأن هذا كان يستجيب لعدة معطيات أهمها:

- هجوم القبائل الهلالية وتملكها لمعظم المدن والقرى و الأرياف المحيطة بالقلعة، مما جعل القلعة تعيش وكأنها في معزل عن عالمها الخارجي، الأمر الذي دفع بالناصر إلى اختيار موضع بجاية المبنية على البحر، وهو المنفذ الذي لم يكن بمقدور بنو هلال استغلاله.
- تطلع الحماديين إلى ملك افريقية خاصة و أن الدولة الزيرية كانت تمر بفترات ضعف رهيبة، وقد كان هذا يتطلب من الحماديين التقرب إلى البحر و بناء أسطول يمكن من خلاله مهاجمة مدينة المهدية عاصمة الزيريين.

ثانيا: الهجومات المدمرة التي تعرضت لها القلعة وتمكن الأعداء من خلالها فتح أبوابها واقتحام أسوارها وتخريب عمرانها والتي نذكر من أهمها:

---

[٩٢]- ابن عذاري(المراكشي)، المصدر السابق، ج١، ص٣٦٨.

[٩٣]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص١٥٩. انظر ايضا: ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج١، ص٣٩٩.

[٩٤]- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج١، ص٣٩٩. انظر أيضا: عبد الحميد (سعد زغلول)، المرجع السابق، ص٤٣٦-٤٣٨.

- هجوم الموحدين في سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م[٩٥].
- هجوم بنو غانية في حوالي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣[٩٦].

خاتمة:

هكذا إذا نشأت القلعة في مكان تتوفر فيه كل شروط التمدن، واستطاعت في ظرف وجيز (٤٠٨-٤٦١هـ/١٠١٩-١٠٦٨م) أن تكسب شهرة بين المدن، بل وتنافس مدنا تاريخية كالمهدية وفاس والقيروان، لكن بعد هذه الفترة تغيرت الأوضاع، وعرفت بلاد المغرب ظهور قوى، و أطرافا جديدة، ساهمت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في دخول القلعة مرحلة الأفول، ففقدت ثقلها السياسي، ومركزها الإداري كعاصمة للدولة الحمادية، لتشهد في خاتمة المطاف، هجومات عنيفة على يد الموحدين، ومن بعدهم بنو غانية حولتها إلى خراب.

[٩٥]- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٦، ص ١٧٧، ١٩١.

[٩٦]- نفسه، ج٦، ص ١٩١. أنظر أيضا: سالم (السيد عبد العزيز)، المرجع السابق، ج٢، ص ٨٠٣.

ملاحق:

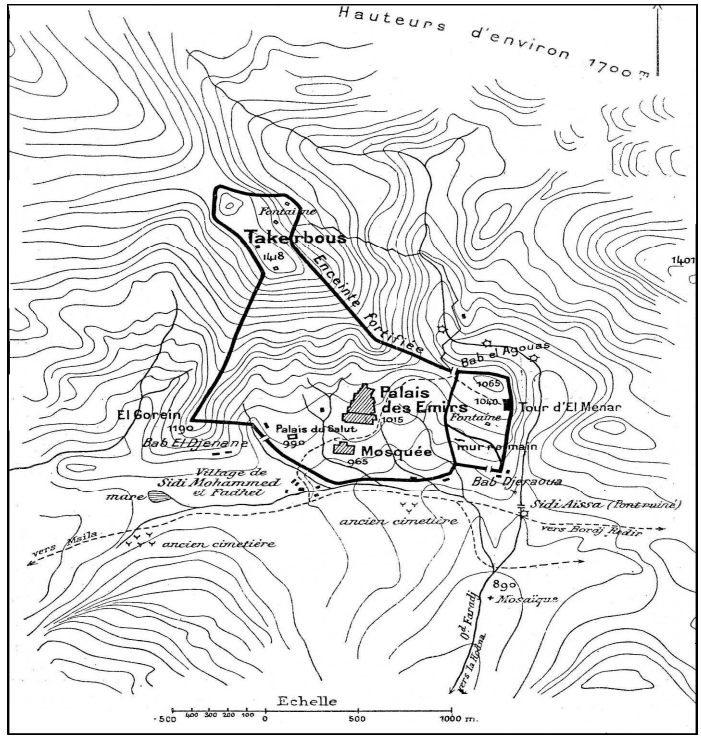

مخطط قلعة بني حماد عن دي بيلي

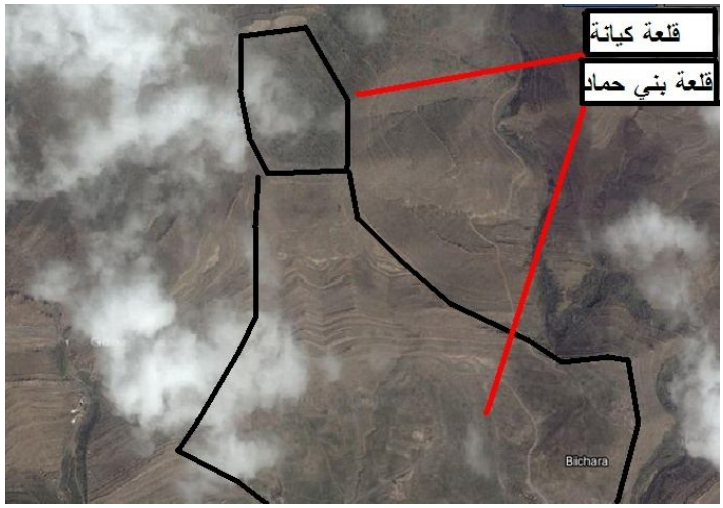

الصورة ١: منظر عام لموقع القلعة (قلعة كيانة و قلعة بني حماد)

الصورة ٢: جزء من بقايا سور القلعة

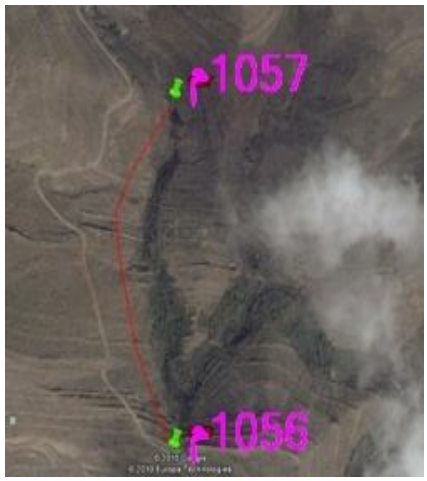

الصورة ٣: مخطط توضيحي لإمكانية جلب الماء بالقلعة من وادي فرج

الصورة ٤: بقايا صهريج قصر البحر

الصورة ٥: بقايا صهريج قصر المنار